

المناهج الغربية والمتن التراثي

د/ مجيد قري

جامعة خنشلة

تلقي المتلقي العربي النص التراثي بجميع تجلياته ومستوياته المعرفية والابستمولوجية المختلفة، وأملى ما استقر لديه من النظريات الأدبية والنقدية القديمة والوافدة احتضان كل تراكمات المتون التراثية وطرح كم هائل من الأسئلة إزاءها، استجداء لفك شفرة بعض النصوص وفك مغاليق بعضها خاصة مع تم من فتح نقدي وفقه لكثير من تطبيقات هذه الآليات القرائية ثم الاجتهاد في ممارسة إسقاطات، نجح الكثير منها في طرق بعض الجوانب المهمة في هذا التراث. تعددت المفاهيم المرتبطة بالتراث و اختلفت، و أحيانا تباينت في أجواء تقاذف التهم في الثقافة الراهنة تياران، تيار مولع بالتراث هائم بنصوصه و أشخاصه و جزئيات الأحداث العامة التي ولد فيها النص.

و هو تيار اعتبره الكثير تيارا محافظا تقليديا قديما سلفيا. قابله تيار آخر حديثي معاصر معادي للأصالة أحيانا، متبني لطروحات غربية و فكر أوربي محض، يتخفى وراء الحداثة و العلم و المنهج لتقدم خطاب عصرائي يواجه به الآخر.

و بين هذا التيار و الذي سبقه تيار توفيقى عبر عنه (الجايري) بقوله : (فما كان في الوسط فهو توفيقى، و ما كان في أحد القطبين فهو إما سلفي ينشد الأصالة و إما عصرائي ينشد الحداثة).⁽¹⁾

شكل تلقي النص التراثي منذ القلم إشكاليات في القراءة و في تشكيل موقف موحد إزاءه. فبينما تناوله البعض في شكل تقديس أدبي و بصمة إبداعية، لا يمكن للإبداعات الأدبية اللاحقة مهما سميت و ارتقت جمالياتها أن تبلغ ما بلغته تلك العبقريات الخالدة، و لا تصلح تلك الإبداعات إلا أن تكون منارات يجب أن يقتدي بها المبدعون على مر العصور و اختلاف

الأمصار، و ينهلوا منها و ينشئوا على منوالها ، و كاد يستقر في خلدكم أن الأمهات لن يلدن أبدا شعراء في مثل شعراء المعلقات و الصعاليك، و لا مثيل للمنتبي و بشار و أبا فراس.. و غيرهم من مقامات الأدب والشعر القدامى.

و سكن هذا الهاجس هامشا لا يمكن إنكاره من معاصر المتلقين و المتذوقين أيضا، فأصبحوا ينبرون لمعانقة النص التراثي دون أي تمحيص لأنهم قبلوه بالكلية، و اقتنعوا بالفرضيات النقدية التي دأب البعض على ترسيخها و التسويق لها. و قد جاء ذلك الالتفاف أكثر خاصة بعد الحملات التي حاول البعض من التيار الآخر شنها على هذا التراث.

و لما اعتقد التراثيون بقناعات راسخة أن استهداف التراث من طرف بعض المتعصبين من الطرف الآخر، إنما القصد منه هو النيل من جزء هام من الهوية، زاد إصرارهم أكثر على جمع الصفوف و استنفار القواعد و إثارة الحمية ، فزاد الالتفاف حول كل ما هو تراثي ، و أحيط المتن القديم بأهمية أكثر من ذي قبل ، بل و أعظم من ذلك ، تناول هؤلاء آراء المناوئين لهم، و حاولوا ردها و استعانوا ببعض أدواتهم و آلياتهم الإجرائية لإعطاء الانطباع أن النص التراثي يبقى مفتوحا منفتحاً على كل نظرية لا تقلل من شأنه، و تحاول إنصافه .

بل ذهب البعض أبعد من ذلك عندما دعوا لتأسيس نقد عربي خالص لقراءة التراث لأن ذلك سيكلف عدم وقوع النص التراثي ضحية لمعطيات المناهج النقدية المعاصرة الكثيرة، التي غالبا ما تكون أصولها غربية، تكون من المتن التراثي و تنفي كثيرا من جمالياته و تسلب بعض عبقرية مبدعيه، بل و تلصق به تهما تجعله في دونية من نصوص وضعت في بيئات أخرى غير عربية.

و هذا الموقف الذي نشأ عند الكثير من مريدي التراث ، جعلهم في قفص الاتهام . و التصقت بهم تهمة غواية التراث و اعتبروهم مريدين محبين للتراث من منطلق قومي ، أو منطلق له وشائج تربطه بالهوية دون منطلق إبداعي أو جمالي يعدد جماليات ينتصر لها ، و هو حب للتراث من أجل أنه تراث ، و التفريط في جزء منه هو تفريط في الهوية .

لكن هذه التهمة وإن رفضها البعض و اعتبروها انتقاصا من دفاعهم عن الهوية و تهوينا من جهد أجدادهم القدامى و إبداعاتهم، قبلها البعض ممن انتمى إلى نفس هؤلاء الأجداد. و حاولوا أن ينتصروا للتراث بطريقتهم الخاصة، و بقراءة جديدة (تكشف عن النظريات الشعرية العربية القديمة، و النظريات الشعرية المعاصرة في مفهوم الشعر أو الشعرية بنية و دلالة).⁽²⁾ و ربما أوكل هذا الجهد إلى البقية الباقية- و هم ليسوا قلة- للذين لا ينكرون بعض فضل التراث العربي على التراث الإنساني بشكل عام .

و مع ما تأتى لهؤلاء من اطلاع على التجارب الغربية الحديثة في طرق النص الإبداعي ، و ما حصل لديهم من إلمام بمجموع المناهج الحديثة في تناول النص الإبداعي، و خاصة الشعري منه، راحوا يطرقون النص الشعري التراثي- خاصة -، مسلحين بنصوص و أدوات إجرائية نقدية (و من الملاحظ - في هذا الإطار - أن كل حركة نقدية أو أدبية جديدة كانت تعود إلى التراث الشعري بوجه عام ، و الجاهلي بوجه خاص كي تخضعه إلى تقنيات قراءاتها الجديدة و آلياتها التفسيرية الموازية .. و في كل مرة تتكرر المحاولة التجديدية لرؤية الشعر القلم بعدسات الحركة الجديدة و مراهاها و اصطلاحاتها في الوقت نفسه).⁽³⁾

و قد استفاد هؤلاء النقاد العرب المحدثون الذين كان التراث حقلا لدراساتهم و موضوع اهتمامهم من الانشغالات النقدية بالنص الإبداعي بالغرب ، بدءا بما حصل لهم من قراءة النقد التراثي العربي، ثم مسارات المناهج و النظريات النقدية الغربية بداية من الشكلائية الروسية حتى نظريات القراءة و التلقي .⁽⁴⁾

و رغم أن جهد هؤلاء لم يستقر لدى منهج أمثل لمواجهة النص التراثي و قراءته أو إعادة قراءته، إلا أنه أثار أسئلة عبرت أحيانا عن مآزق تكشف أثناء مواجهة النص التراثي ، و أحيانا مطبات فكرية و منهجية تثار عند الحديث عن المضامين الفكرية و الإيديولوجية التي تحويها النصوص التراثية ، و التي تميزها عن مثيلاتها الغربية ، التي وضعت على مقاسها المناهج الحديثة . و

التي يصعب تطبيقها أحيانا على التراث الشعري على وجه التحديد و الوصول إلى خلاصات ذات قيمة علمية وفنية كبرى.

و ربما ما وقع فيه الحداثيون العرب من خلط و سوء فهم أحيانا في هذا الباب هو جعل الآصرة و العلاقة بين التحديث كمطلب واقعي لا مفر منه ، و بين الحداثة كأساس للتحديث الغربي دون النظر للفروق الجوهرية بين ثقافة الحداثة الغربية و الثقافة العربية. ⁽⁵⁾ حيث لم ينف هؤلاء جهم للتراث العربي ، لكنهم لم ينكروا ارتقاءهم في أحضان الجهد الغربي و انبهارهم بإنجازاتهم و مرجعياتهم الفكرية و رؤياهم الجمالية .

و لكن مع ما ذكر، فلم يعدم هؤلاء بعض غواية التراث و نخلهم من موروثه الشعري و أرضيته اللغوية .

يقول الدكتور جابر عصفور الذي شغله التراث وانبرى لدرسه في كتابه " غواية التراث ":
(أعترف أنني تلميذ صغير في مدرسة طه حسين التي لا يخلو واحد من المنتسبين إليها من غواية التراث الأدبي الذي اقتحمته و لازمته ، فانغوى بهذا التراث قراءة و درسا شرحا و تأويلا ، تعميما و تخصيصا ، و لكني بقدر ما تعلمت من طه حسين و تأثرت به ، تعلمت من تلاميذه الذين تتلمذت عليهم بشكل مباشر أو غير مباشر ، ابتداء من شوقي ضيف و يوسف خليف و عبد العزيز الأهواني وسهير القلماوي و محمد النويهي مرورا بمصطفى ناصف و لطفي عبد البديع و عبد الحميد يونس ، و انتهاء بصلاح عبد الصبور و فاروق خورشيد و عزا لدين إسماعيل ...). ⁽⁶⁾

النصوص الشعرية التراثية قائلتها ذوات مبدعة ، والشعراء و النقاد العرب حديثا لا ينفون عودتهم إلى التراث و الإفادة منه مستأنسين بآراء " إليوت " حول التراث و بنية النقد الأدبي الحديث يقول **إليوت** : (إن التراث يتضمن أساسا الحس التاريخي الذي ينطوي على إدراك نافذ ليس لماضوية الماضي فحسب بل لحضوره، و هو يلزم الشاعر بأن يكتب لا بوعي الانتهاء إلى جيله فحسب ، بل بتأثير الشعور بأن أدب بلاده بأسره موجود بشكل متزامن يؤلف نظاما متزامنا .

هذا الحس التاريخي على حد قوله - هو حس بالسرمدي، و هو حس بالزمن معا ، و هو في الوقت نفسه ما يجعل الكاتب يعني بحده مكانه في الزمن ،أي كونه معاصرا .⁽⁷⁾

إذا فتجاوز عتبة التاريخ و السعي للولوج لعوالم الإبداعات التراثية و طرق أسرار بياها و جمالها وتفردها و محاولة ربطها بروح العصر، و تجاوز حاجز المكان و الزمان ،جعل الناقد الحديث يحتفي بالتراث بطريقته و يشتغل به ليقراً القديم بمنظر حداثي، لا ينكر ذاتية صاحبه لكن يرى في ضوء مناهج معدة في بيئات بعيدة عنا ، ربما أنصفته أو أحاطته بهالة من الأسطورة ،كما يمكن أن تقزمه و أن تھون من القيم المحتمل حملها فيه .

و هو جهد تكبده البعض ، و تنصل من تبعته آخرون ، بعدما تأكد لديهم أن التراث قد يصبح عبئا ثقيلا ، إذا حاول النقاد الخروج عن الصورة النمطية المعهودة التي وضعت له و هالة الإعجاب المبالغ فيه أحيانا التي يحظى بها . لأن الناقد متى انساق وراء هاته الاعتقادات الراسخة ، تأكد له أكثر النتائج غير المنصفة التي قد يخرج بها، لأن استخلاص الذهب من التراب يكون بالقدر الذي لا ينقص من قيمته كذهب ، و متى كان كم التراب كله ذهباً ، فما جدوى جعل تسمية الذهب ذهباً والتراب تراب؟.

وهذا ما جعل عند البعض الركون و الانتصار للمحفف أحيانا للتراث على حساب غيره تھمة وجب التملص منها، و ذاتية مححفة تغيب بها كل موضوعية تنصف المتن التراثي ذاته.

اخترنا الشعر دون النثر في التراث الأدبي العربي لاعتبارات خاصة أملتھا طبيعة البحث ،و نظرا للحيز الذي احتله هذا الفن و المساحة التي شغلھا لدى النقاد ، ورغم الاختلاف الذي عرفه هذا المفهوم منذ القدم فلكل (عصر مفاهيمه الخاصة للشعر ، و لكل مرحلة تاريخية مذهبها الأدبية . و قد تتجاوز مذاهب أدبية في العصر الواحد دون أن تتفق على مفهوم محدد للشعر. و هذا يعني أن الشعر مصطلح خلافي بامتياز، يتعدد مفهومه بتعدد المكان و الزمان و المذاهب. بل يكاد يتعدد بتعدد الشعراء و النقاد في المدرسة الأدبية الواحدة ...) .⁽⁸⁾

و إذا لم يتم اتفاق على تحديد المفهوم، فالقول في عدم التوافق على معنى أو على معاني محددة ضرب من المغالطة و المعنى و الحد من الإبداع. و هو سيف كان يلوح به في كل مرة المرتادون للنص التراثي، خاصة مع ما تم من تواصل مع الدراسات الحديثة التي تناولت المتون الإنسانية بشكل عام بالاستعانة بما وصلت له جهود العلماء و النقاد في هذا الباب .

رأى الكثير من النقاد الذين حاولوا ولوج عوالم الشعر الجاهلي مثلاً أن الاكتفاء بالمشاهدة و ذكر عالم الأشياء و الحيوان بدقائقه ، و تتبع لحظات الزمن و سرد الأحداث ليس كافياً لوعي دقائق المفكرة العربية و طريقة التعامل مع الحياة و (ظاهرة لافتة يلحظها من يطالع الشعر الجاهلي ، فالشاعر في هذا الشعر لا ينظر إلى عالم الأشياء و الحيوان و الكائنات نظراً محايداً ، كأن العالم منفصل عنه ، مستقل في الوجود ، يتكون من معطيات بارزة أو موضوعات بريئة من المدركات ، العالم في عيني الشاعر الجاهلي و في قصائده عالم فاعل منفعل ، خارجي داخلي ذات و موضوع ، و عي للشاعر و حضور لوجوده ، مرآة للأنثى و محط لتطلعها...علاقات متجاذبة لا تنفصل فيها الأشياء عن الكائنات .. حضور متفاعل ينطق كل عنصر فيه لغة تشارك بقية العناصر و الكائنات).⁽⁹⁾

و ما قيل عن الشعر الجاهلي ينطبق على نصوص شعرية كثيرة قيلت في بيئات زمنية و مكانية كثيرة متباعدة. و محاولة إنصاف هذه المتون يستدعي تناولها في إطار الزخم المحيط بها . و ذكر بعض ما حاولته الدراسات التي تناولت النصوص التراثية بالدرس مستفيدة من نماذج جاهزة، ربما أنصفت نصوصاً أخرى في بيئات مغايرة للبيئة العربية و طبيعة و طبع العربي و منطلقاته الفكرية و معتقداته الراسخة التي لم تكن الأيام و الأحداث كفيلة بتغييرها أو تعديلها.

و إن أقر (شوقي ضيف) أن المناهج التي وضعت للأدب قديمها و حديثها لا تغدو غايتها التوضيح و التقويم .⁽¹⁰⁾ فإن ذلك لا يمنعنا اختيار المنهج أو رفضه إذا أحل بتوازن النص أو الفهم أو بهما معاً . ونحاول إبراز ذواتنا في انتقاء ما يلزم من أدوات لولوج عوالم النص التراثي بتراكماته و أسرار و أشخاصه و تشعب أحداثه . وهو ما يملي طابع الخصوصية و التميز الذي

يلقي بظلاله على النص ، و يدعم الناقد لاستجدائه قصد إقناع المتلقي وجعله يتجاوب ما يردد على مسامعه ويشبع نهمه، الذي ترسبت عبر الزمن أشياء تزيد من قناعاته ، وتجعله يتفاعل أكثر مع تلك القناعات ، ويجب (أن نقف عند منهج لا يعمد إلى الدراسة العامة في الأدب و الأدباء، و إنما يقف عند شرح الشعر و تفسيره ، و بيان معاني ألفاظه ودلالاته) .⁽¹¹⁾

اتجه المبدعون والنقاد لقراءة التراث ، و اكتشفوا كثيرا من درره ، و تقاطعاته مع التراث الإنساني، و لإعطاء بريق أكثر لهذا التراث ، مارس معه المبدعون تقاطعات جاءت في شكل تناسلات أثبتت الحضور لبعض نبض هذا النص و ذكرت به ، حتى يبقى هذا الحضور شاهدا على تلك البصمة القديمة ، و يبقوا التواصل معها مفتخرين بشبهة و تهمه غواية التراث التي حاول خصوم التراث إلصاقها بكل من حاول إثبات الانتماء لهذا النص درسا أو محاكاة أو اقتباسات أو حتى إشارات لهذا المنبع .

ما حاوله المنصفون من الذين دعوا إلى دراسة النص التراثي و قراءته قراءة ثانية يعيد له بريقه الذي نال من بعضه المناوئون - هذا الذي حاوله هؤلاء - وقد يثني من بعض عزمنا لمحاكمة المناهج النقدية الغربية. لأنها ليست شرا مطلقا بالكلية، و لم يضعها المنظرون لها - أساسا- لمناهضة النص التراثي ، بل اجتهدوا في إعدادها للتواصل مع النصوص بأدوات في يد الناقد بعيدا عن الانطباعية و الأحكام الجاهزة التي تحط من قيمة نصوص و تعلي من قيمة أخرى .

و إذ تجود المعرفة و الفكر بمناهل تغذي المخيلة العربية و تدفعها أكثر للإبداع. فإن ذلك في منطق الأدب و النقد أيضا يملئ استنباط قيم جمالية من النصوص التراثية ولها ، تربط الماضي بالراهن من منظور حدائثي في ضوء من المناهج النقدية و الجمالية الحديثة تبرز فيه الشخصية العربية في تفاعلاتها مع رصيدها الحضاري الضخم و تفاعلها مع ما أتيح لها في اتصالها مع الغرب.

لأن عدم بروز الشخصية بامتيازاتها الروحية و رصيدها التاريخي تجعلنا نتناول المنهج بحرفيته، و نرضى بتطبيقاته التي استنزفت التراث بدراساتها السياقية و النسقية التي اختزلت

أشخاصا من تراثنا الأدبي ، وقدمت آخرين و أننت عليهم ، حتى دام لهم الذكر رغم استهلاكهم بحثا ، وأحيانا دون طائل .

كما عمدت هذه الدراسات لإطلاق أحكام عامة أدخلت ببعض المنظومات الاجتماعية و التاريخية التي دأب العرب على التوافق على احترامها. وكانت بعض تطبيقات بعض المناهج مضللة صبغت العصر الجاهلي ببعض روحانية الإسلام، كما سلبت بعض محاسن الفترات الإسلامية اللاحقة ، و أصقت بها بعض وثنية الفرس و الهند و اليونان، وهو ما حاولته بعض تطبيقات المنهج الأسطوري مثلا في استجداء مفاهيم التراث الشعري، وكذا انتقادات المناهج السياقية كالتاريخي و الاجتماعي و النفسي التي نالت من الأشخاص و الظواهر الفنية: فشأن شاعر واحد كأبي نواس مثلا نقرأ لناقد يقول عنه أنه نرجسي، و دارس آخر يلتمس له العذر بل الأعداء ويرر اتجاهه للخمرة ، و يجعل تعلقه بزجاجة الخمرة تعلقا بالألم التي افتقد حنائها . و آخر يقول أن الرجل لم يشرب في حياته خمرا و لم يحتسه، وتوظيفها لها كان ا توظيفاً صوفيا .. وآراء أخرى كثيرة إزاء نفس الشخص فيتية المعنى الذي أرادته أبو نواس في أشعاره، ويختار المتلقي ، ويصعب عليه وضع اليد على الجماليات التي قد تحويها الأبيات الشعرية والقصائد، لأن أبا نواس تعامل معه النقاد تارة كبنية نصية متجولة في متونه الشعرية من منطق "موت المؤلف" و التعامل مع الأنساق اللغوية و الدلالات بعيدا عن أي سياق ، بينما آخرون أقحموه إقحاما مجحفا كما فعل النوبيي و العقاد وغيرهما ، وحملوا النص مالا يطيقه. فكاد يتيه المعنى، وتشتت المتلقي وتاه ذهنه وأعتقد أن الخطأ في المناهج التي تحولت إلى أدوات للنيل من النصوص التراثية وذواتها المبدعة.

وحتى لا تحاكم المناهج، وجب التوقف عند إيجابياتها وسلبياتها ، و الوقوف عند تطبيقاتها، وهل وفق النقاد في إسقاطهم وتطبيقاتهم، أم أنهم لم يفهموا حتى طبيعة بعض هذه المناهج ولا المنطلقات الفكرية والفلسفية لها، ولا كيف أريد لها أن توجه لمواجهة النصوص.

و إذا اخترنا عينة لهذه المناهج حتى لا نظلمها جميعها ونحاكمها محاكمة غيابية دون إدراك لإيجابياتها، نقول في المنهجين التاريخي والاجتماعي ثم نعرج للقول في المناهج النصانية التي اشتغلت بالنسق والبنية. فالمنهج التاريخي مثلا الذي اعتمد كثيرا في بداية العصر الحديث في النقد العربي، وواجه به النقاد النص التراثي اشتمل على عدة عيوب (لعل أخطرها هذا الربط الحتمي بين الأدب و السياسة و جعل الأدب ذبلا لا يكاد يصدر إلا حالة هذه السياسة من القوة أو الضعف أو الاتساع أو الضيق فضلا عن فضل هذه العصور بعضها عن بعض ، بينما الواقع يكذب هذا في مجال الأدب خاصة ، و ذلك حين تتداخل المعاني و الموضوعات و المذاهب بين العصر و ما يليه و ما يسبقه) . (12)

كما اتخذ النقد الاجتماعي بعدا فلسفيا ، و تعسف أصحابه في تطبيقاته ، و اعتبر النقد الماركسي مثلا الأدب و كل نشاط إنساني في المجتمع بما فيه الأدب و الفن بنية فوقية، تحركها البنية التحتية التي هي العامل الاقتصادي و حركة الإنتاج المادي ، و هو ما جعل الأدب ينتهي إلى كونه مؤسسة اجتماعية شأنها شأن المؤسسات الأخرى (13) بعض الاتجاهات النقدية النصانية التي عنت باللغة و النسق نالت - و هي تدرس التراث - بالاستعانة بالإحصاء و الجداول و النسب و الأرقام و المنحنيات ، و فككت النص تفكيكا مجحفا جعله البعض كيمياء شعورية أو رياضيات فنية، و اتجهت بالنص للاختبار العلمي و المخبر و الآلة ، فأصبح ذلك شيئا غير مستساغ في عرف الأدب و النقد . ذلك وغيره نفر من النظر للأدب على أساس من هذا التفكيك و البناء الذي أذهب بريقه و روحه والرسالة الأولى التي لأجلها كتب.

نقاد آخرون، و حتى لا يحاكم المنهج عمدوا إلى ضرورة احترام خصوصية النص التراثي و تنوعه ، و أملوا ما يصطلح عليه النقد التكاملي (منهج اللامنهج) (14) ، حتى لا يجعلوا جهد من وضعوا المناهج تذهب سدى لعلمهم أن إسقاطات بعض المناهج الحديثة في حق التراث كانت مجحفة نالت من روعة كثير من النصوص كما نالت من كثير من المقامات و ألصقت بهم تهما تناولها المتلقون - دون وعي - و راحوا يروجون لها ، فوجدت صداها في هامش كثير من

قارئهم و متلقيهم، حتى كادت تركز لتغدو مسلمات أضرت بالأدب العربي و نقده أكثر مما أسدت له المعروف .

و لإعادة الاعتبار لهذا النص التراثي يجب- إضافة لما سبق- احترام خصوصية النص التراثي العربي و الظروف و السياسية والتاريخية و الاجتماعية التي نشأ فيها ، ثم وعي المناهج النقدية و تطبيقاتها ،وقبل ذلك التعرف على البيئات التي ولدت فيها ،والظروف الخاصة المحيطة بالنشوء والأهداف الأولى، ولأجل إنصاف بعض ذواتنا ونكرانها ،وجب التفكير أكثر في تكييف منظومة مصطلحاتنا النقدية والالتفات لبعض ما يبذل من جهد في بيئاتنا العربية الخاصة والحاضرة كمراجعة ما يصطلح عليه مثلا عند البعض بالمناهج الإسلامية في نقد المدونة الشعرية العربية التي تخطو خطوات رغم إخفاقاتها لإعادة الاعتبار لمدونتنا الشعرية العربية القديمة ،والتي قد تكون جزءا من البديل للمناهج الغربية المغضوب عليها من طرف الكثيرين.

يجب أيضا الرجوع لمراجعة مصطلحاتنا الفنية و مفاتيحنا التي نلج بها النصوص ، و نتجاوز فكرة الاستعارة و الكناية والمحسنات البديعية إلى منظومة نقدية جديدة تستنبط أحكامها من علوم وفروع علوم حديثة كالأسلوبية والشعرية وغيرها .. بما يتلاءم و روح العصر ، و السمو بمستوى التحليلات إلى مقام يليق بالنصوص القديمة و جديتها و القيم الفنية والجمالية وكذا الحضارية التي تختزنها.

و يجب قراءة الشعر و دراسته (بخيال خصب يجمع بين القديم و الجديد، و بين الشيء و ضده، لكنه يوحد الجميع في عمل متكامل منسجم، و بناء على هذا تغدو الوسائل التي يدخلها البديع وسائل هامشية جيء بها للتزيين المادي. كما أن العلاقات التي تحكم أشياءه داخل القصيدة هي علاقات روحية خفية تربط الخارج بالداخل، و الصورة بالإيقاع لتعميق أسباب التجربة و المعنى الكوني العام).⁽¹⁵⁾

و هذا الطرح الجديد يملئ ضرورة تعديل و تصحيح الرؤية لمورثنا الشعري العام ، و دراسته في مواجهة قائلها و ذواتنا و الآخر وسياقها الحضاري العام والخاص الذي قيلت فيه ، دون

نسيان الاستفادة من القراءات التي أنصفت النص التراثي ، و المناهج التي يمكن إن تقدم بالإضافة للمتون التراثية لأن المعرفة مهما كانت الاختلافات تبقى رصيда إنسانيا علميا مشتركا، واختزال الآخر بعض الجناية على الذات ، لكن الذوبان في الآخر ونكران الذات والخصوصية هو جرم أعظم لن تغفره لنا الأجيال التي سترث ميراثنا وإنجازاتنا وحيياتنا .

ويبقى ما بذل من جهد لمعانقة هذا التراث وفهمه قليلا مع ما أتيح له من جهد وما سخر له من إمكانيات سواء من عاشقيه أو حتى من المنتكرين له لأن نشر الفضائل متاح لها ألسنة الحاسدين أحيانا فتسود..

بل حتى من استهواهم التراث وسكنهم أنفسهم وكانوا رافضين لكل الآليات القرائية الوافدة، راحوا يفكرون في تجديد آلياتهم دون تغيير قناعاتهم الأولى حول هذا التراث . وهو ما يجعل الأمل متاعظما لقراءات أخرى جديدة متجددة تستنطق تراثنا وتعيد إحياءه لتقدمه للآخر متى تم لنا نصيب وافر من الفهم حوله وإدراك القيم المتجالة المكتنزة التي يحتملها..

الهوامش:

1. محمد عابد الجابري : الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط3، 1994، ص 38.
2. طراد الكبيسي: في الشعرية العربية - قراءة جديدة في نظرية قديمة، اتحاد الكتاب العرب دمشق (د.ط) 2004، ص 10 .
3. د/جابر عصفور: غواية التراث، كتاب العربي العدد 62، وزارة الإعلام، الكويت 2005، ص 09 وما بعدها.
4. للمزيد انظر: حمود عباس عبد الواحد: قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي. دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة ط1، 1996، ص 7.
5. للمزيد انظر عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 27 ، الكويت 2001 ص 30 وما بعدها.
6. د/جابر عصفور: غواية التراث ص 6 و ما بعدها.
7. د/ ريتا عوض: الشعر التراثي . تواصل... أم انقطاع، منتديات تخاطب: ملتقى اللسانيين و اللغويين و الأدباء و المثقفين و الفلاسفة 18 سبتمبر 2010 (عن مجلة العربي، العدد 508).

8. فاتح علاق: مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005، ص92.
9. د/جابر عصفور: غواية التراث، ص73 و74.
10. أحمد سمير المرسى: المنهج النقدي في تراثنا حاضر أو غائب؟-شوقي ضيف مركزا إرشاديا-، شبكة الألوكة، 07 جويلية 2009، ص03.
11. شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف القاهرة، 1962، ص56 وما بعدها.
12. الأدب و الصراع الحضاري ص 68 وما بعدها.
13. للمزيد انظر: شلتاغ عهود شراد: مدخل إلى النقد الأدبي الحديث، ص234 وما بعدها.
14. للمزيد انظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي (المنهج التكاملية).
15. د/عبد القادر الرباعي: في تشكل الخطاب النقدي، مقاربات منهجية معاصرة، دار الأهلية، لبنان، 1997، ص67.